المبحث الرابع

اعتذار الهدهد إلى سليمان عليه السلام

تحدثت سورة النمل عن ملكاً شاهقاً شائقاً، بني على محاسن الشيم والأخلاق، ملك سليمان عليه السلام، تتنوع فيه الشخصيات والقيم، نقف هنا على شخصية الهدهد مستلهمين منه جميل الاعتذار.

فلقد حشر لسليمان عليه السلام يوماً جنوده من الجن والإنس والطير، سار بهم جميعاً على تعدد أجناسهم، في موقف مهيب وتنظيم دقيق، وبعد حين من المسير أخذ النبي العادل الحازم يتفقد رعيته، فاكتشف غياب الهدهد: ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيۡرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَآ أَرَى ٱلۡهُدۡهُدَ أَمۡ كَانَ مِنَ ٱلۡغَآئِبِينَ ٢٠ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابٗا شَدِيدًا أَوۡ لَأَاْذۡبَحَنَّهُۥٓ أَوۡ لَيَأۡتِيَنِّي بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ ٢١﴾[النمل: 20 - 21]،

واشتد غضب سليمان عليه السلام وتوعد الهدهد بتعذيبه أو قتله إلا إذا أتى بعذر واضحٍ مبين، لكن لم يطل الوقت حتى جاء الهدهد معتذراً: ﴿فَمَكَثَ غَيۡرَ بَعِيدٖ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ وَجِئۡتُكَ مِن سَبَإِۭ بِنَبَإٖ يَقِينٍ ٢٢﴾[النمل:22]، وأعطى الهدهد مقدمة لاعتذاره بقوله: ﴿ أَحَطتُ بِمَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ وَجِئۡتُكَ مِن سَبَإِۭ بِنَبَإٖ يَقِينٍ ٢٢﴾ استمالةً لقلب سليمان عليه السلام في الإصغاء إليه، فإن النفس للاعتذار المنبئ عن أمر بديع أقبل، وإلى تلقي ما لا تعلمه أميل، ثم سرد نبأه، وعظيم ما وجده من خبر بلقيس، وعبادتها وقومها للشمس من دون الله ﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةٗ تَمۡلِكُهُمۡ وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ وَلَهَا عَرۡشٌ عَظِيمٞ ٢٣ وَجَدتُّهَا وَقَوۡمَهَا يَسۡجُدُونَ لِلشَّمۡسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمۡ لَا يَهۡتَدُونَ ٢٤﴾[النمل:23، 24].

وهنا أراد سليمان عليه السلام أن يتحقق من هذا النبأ الخطير، الذي اهتزت له مشاعره، فكيف يكون في زمانه من يعبد غير الله، وهو الذي بعث بدعوة التوحيد والإيمان، فكتب كتاباً

وأرسله مع الهدهد، ليرى صدق ما أخبر به، وقد تحقق من ذلك بما أوضحته الآيات بعدها في سورة النمل.[1]

شذرات في اعتذار الهدهد إلى سليمان عليه السلام:

1. رغم غيض سليمان عليه السلام، وتهديده الشديد، إلا أنه لم يغلق الباب أمام عذر مقبول مقنع يقدمه الهدهد بعد غيبته، فكم نحن بحاجة إلى التريث في الحكم على من أخطأ بحقنا، وفتح باب الاعتذار أمامه.
2. مبادرة الهدهد بالاعتذار، يدل على ذلك سياق الآية في قوله تعالى: ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ٢٢﴾، حيث كان اعتذاره فور مجيئه؛ لاقتران القول بالفاء الدالة على التعقيب و الترتيب.
3. بديع الهدهد في الاعتذار:

- تقديمه لاعتذاره بمقدمة تستميل قلب سليمان عليه السلام، وتضمن إصغائه له، وفي ذلك يقول ابن القيم:" فهذه مقدمة بين يدي إخباره لنبي الله بذلك النبأ استفرغت قلب المخبر لتلقي الخبر وأوجبت له التشوف التام إلى سماعه ومعرفته وهذا نوع من براعة الاستهلال وخطاب التهييج ".[2]
- في قوله: ﴿بِنَبَإٍ يَقِينٍ ٢٢﴾ رفع توهم الكذب عنه، وتطمين المخاطب بصدق اعتذاره.
- لطافته في الاعتذار، يقول ابن عثيمين: "لم يقل أنت جاهل، ولا تعرف، بل قال: (أحطت بما لم تحط به)".[3]

---

[1] ينظر: جامع البيان(19/ 450)،إرشاد العقل السليم (6/ 280)،فتح البيان (10/ 31)، محاسن التأويل (7/ 495)، أضواء البيان(8/ 8).

[2] شفاء العليل (ص: 71).

[3] تفسير العثيمين (103/6).

4. قبول العذر وامتحانه قبل قبوله، يقول القاسمي:" أن في قوله تعالى: ﴿ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ٢٧﴾[النمل:27] قبول الوالي عذر رعيته، ودرءه العقوبة عنهم، وامتحان صدقهم فيما اعتذروا به"،[1] فالآية دليل على أن الإمام يجب عليه أن يقبل عذر رعيته ويدرأ العقوبة عنهم في ظاهر أحوالهم بباطن أحوالهم؛ لأن سليمان لم يعاقب الهدهد حين اعتذر إليه ولكنه لم يتسرع في قبول كلامه حتى امتحنه.

5. مع علم الهدهد بحزم سليمان عليه السلام وشدته إلا أن اعتذاره كان يوحي بالعزة والجرأة، ربما كان ذلك لعلمه بعدل سليمان وحكمته، أو لأن عذره مما يمسُ الدين والعقيدة، بل أن عبادة قوم بلقيس للشمس ينافي الأصل الذي خلق الإنسان من أجله، ويناقضه أشد المناقضة، وهو عبادة الله وحده لا شريك له، الأصل الذي أرسل به جميع الرسل، وفي هذا إشارة إلى أن المعتذر لا بد أن يراعي ما يناسب عذره من الخطاب، كأن يقدمه بأسلوب يغلبه القوة والعزة كما كان من الهدهد، أو يقدمه بإسلوب يغلب عليه الاستعطاف كما كان من أخوة يوسف عليه السلام حينما قدموا اعتذارهم لأبيهم، وقد بيّنا ذلك في اعتذار إخوة يوسف لأبيهم، والأساليب تتعدد في ذلك وقد بيّنا كلاًّ في موضعه.

6. ضرب الله قصة الهدهد لنتعلم منه بديع الاعتذار كما تعلمنا من الغراب دفن الأموات، وهكذا قصص القرآن تساق، وتتعدد فيها العبر والأهداف، وإن في ذلك لعبرةً لأولي الألباب.

7. سلك الهدهد مع سليمان عليه السلام مسلك الاعتذار المقنع، فأخبره أولاً باطلاعه على ما لم يطلع عليه سليمان عليه السلام، ثم أخبره أنه نبأ يقن لا شك، وكانت تلك الإخبارات بمثابة التوطئة للعذر الذي سيذكره تشوف سليمان عليه السلام بعدها إلى

---

[1] محاسن التأويل (7/ 495)

معرفة النبأ، حينها أخبره بلملك الذي أوتيته امرأة، وكان سليمان عليه السلام قد سأل الله أن يؤتيه ملكا لا ينبغي لأحد من بعده، ثم أخبره بما يهزه وهو عبادتهم للشمس وإشراكهم بالله عز وجل، فقد ضلوا السبيل القويم وزين لهم الشيطان أعمالهم فصرفهم عن الهداية، فكانت هذه الإخبارات من الهدهد عذرا واضحاً مقنعاً أزال عنه العقوبة التي كان سليمان قد توعده بها، وقام ذلك الاعتذار مقام السلطان المبين، إذ كان في غيبته مصلحة لإعلام سليمان بما كان خافيا عنه، ومآله إلى إيمان الملكة وقومها.